عن الظرفاء

محمد إمام العبد

للأستاذ محمد رجب البيومي

يدور حديث الأدباء عن إمام في خفوت وهمس ، فأنت تجد من يذكر له النكتة الرائعة ، أو البيت الجيد ، أو الحادثة الغريبة ، دون أن يتعدى ذلك في قليل أو كثير ، فإذا أردت من يلم بدقائق أخباره ، وينشد روائع أشعاره ، ويحلل مواقفه الاجتماعية والأدبية أعوزك أن تهتدي إلى ضالتك المنشودة ، وخيل إليك أن إماما شاعر قديم نشأ منذ قرون بعيدة ، وسكتت عنه المراجع التاريخية ، فما جاء عليه أحد معاصريه بترجمة وافية تضمن لتاريخه البقاء ، مع أن شاعرنا البائس أديب معاصر ، لا يزال يوجد بين أدبائنا من سامروه وحفظوا عنه وتندروا به ، ولكن بؤسه الذي صحبه في حياته قد امتد إلى تاريخه ، فكاد أن يأتي عليه . والبؤس طاغية جبار ، يصاول الأحياء في عنف وطغيان ، فإذا لفظوا أنفاسهم بين يديه ، عدا على القبور ، فمزق الأكفان وبعثر الأشلاء !

ولد إمام من عبدين رقيقين قد جلبا من السودان ، وبيعا لبعض الأثرياء ، فورث عنهما السواد والدمامة والبؤس ، ونشأ في كنفهما يقتات بما يتساقط من فتات الموائد وبقايا الصحاف ، وكأن القدر لم يشأ أن يحرمه كل شيء ، فمنحه القوة في الجسم ، والبلاغة في النطق ، والخفة في الروح ، فكان رياضيا ممتازا يصرع أقرانه لدى الصيال ، وشاعرا مطبوعا يحتكم في القوافي والأوزان ، وخطيبا تعرفه الحفلات السياسية ، والأندية الاجتماعية ، وسميرا يؤنس سامعيه بالملحة النادرة ، والفكاهة العذبة ، وقل أن يجتمع هذا كله لإنسان !!

وكان لونه الأسود موضع التندر بين زملائه وعارفيه ، فقاسى من جرائه كثيرا من ألوان التهكم والاستخفاف ، وهذا ليس بعجيب ، فقد ابتلي كثير من الأدباء قبله ببلواه ، فدافعوا عن أنفسهم أبلغ دفاع ، وحفظ لنا الأدب قلائد فاتنة لنصيب وعنترة والجاحظ ، يهاجمون بها من ينتقصونهم في أمر لا يوجب النقيصة بل وجد فيهم من فضل السواد على البياض ، ودبج في ذلك الفصول الطوال !!

وكان حافظ إبراهيم رحمه الله أقسى المتهكمين لهجة ، وألذعهم سخرية ، وكانت فكاهته معه تأخذ طريقها إلى الألسنة في سرعة فائقة ، فما يكاد شاعر النيل يرسل تندره العابث بصاحبه ، حتى يتقدم إماما في كل مجلس يغشاه ، وطالما وقعت بين الشاعرين جفوات متقطعة لما يلوكه حافظ من حديث إمام ، ثم لا تلبث السحب أن تنقشع ، لما بينهما من صلات جمع بينها الشعر والبؤس والفكاهة وأكدها صفاء النفس ، ونقاء الضمير ، وقد اشتهر إمام بالشاعرية قبل صديقه ، فكان حافظ في صباه يعرض عليه ما يفيض به خاطره من بيان ، فيقوم إمام بصقله وتجويده وتزكيته ، ثم مضت الأيام فإذا شاعر النيل يطير بشعره في آفاق الشرق العربي ، وإمام البؤساء لا يجد من يروي قصائده غير حفنة يسيرة لا يمكن أن تلحق رواة حافظ ، ! وينظر العبد إلى مكانه من صاحبه ، فيوسع عشاق حافظ لوما وتسفيها ، كما يعلن أستاذيته له في كل ندوة يدور بها الحديث عن الشعر والشعراء ، وحافظ يرد عليه بنكاته العابثة ، وفكاهته الساخرة ! فينتصر عليه أي انتصار !!

نظم إمام في الخمر أبياتا رائعة صادفت هوى في الأسماع والقلوب ، وأذاعتها الصحف مقرظة مادحة ، وانتظر الشاعر من حافظ أن يوفيها قسطها من الإطراء والإعجاب ، ولكن شاعر النيل يصيح في ندوة حافلة بالسمار والأدباء « إن مثل إمام في الشعر كمثل « بخيتة » في المطبخ ، إذا هي أفلحت في تمرير « اللبة » شاع عنها بين أهل الحي كله أنها سيدة الإماء ، وكذلك يتلق الناس أبيات إمام فيهللون له لأنه مرر « اللبة » بنجاح » !!

والواقع أن حافظا كان مريضا بمعابثة إمام ، فهو لا يرحمه بالسكوت عنه مها بالغ في التودد إليه ، وكان لا يقصر تندره على قصائده وأبياته ، وهي أغنى ثروة يمتز بها الشاعر أي اعتزاز ، بل ينتقل إلى ملبسه ومأكله وهيئته ، فيوسعه سخرية وعبثا ! !

اتيه ذات مرة بلبس « كرافتة » سوداء فصاح به : « أقفل قميصك أيها العبد ، فصدرك الأسود يضجر الناس ! » ووجده مرة يكتب خطابا ، والمداد يتساقط من قلمه فقال « جفف عرقك يا إمام » !! وأمثال هذه المأثورات الحافظية متداولة مشهورة ، وكان فى طوق إمام أن يؤدب صاحبه ببأسه وصرامته ، ولكنه كان فى أكثر أحواله ينفق من جيبه ، ويقاسمه قروشه ومليماته مما يدعو إلى التسامح والإغضاء !

ولم يكن حافظ وحده يستغل سواد إمام فى تندره وسخريته، بل إن إماما نفسه قد اتخذ منه مادة دسمة للحديث عن نفسه ، فهو لا يفتأ يردده فى قصائده وأزجاله ويستلهمه كثيرا من المعانى الجياد ، فإذا تحدث الشاعر عن بؤسه وفاقته دار حول سواده ودمامته ، وإذا لفحه الحب تذكر سواده الفاحم ، فانتزع منه الخواطر الشجية — وهكذا يصبح السواد مركب النقص لديه ، يشعر به فى ألم ومرارة فيسلمه أزمة القوافى والأوزان

إقرأ إن شئت غزله المطبوع ، تجده يدور فى أكثر قصائده على ما منى به من حلوكة دامسة ، وهو فى كل مقطوعة يبتكر ويجدد ، فهو تارة يقع فى حوار مع معشوقته البيضاء ، فيسألها أن تسدل الليل البهيم على بدر الدجى الساطع ، فترفض فى إباء واستعلاء ، وتتعجب من عبد أسود يطمع فى غرام غانية عزت على الأحرار البيض ، فيجيبها بما يثبت حريته واستقلاله ، ويصور ذلك إذ يقول :

عذبى القلب كما شئت ولا ... تكثرى اللوم فمثلى لا يلام
واسدلى الليل على بدر الدجى ... لحديث الشوق يحلو فى الظلام
همت بالوصل فقالت عجبا ... أيها الشاعر ما هذا الهيام
لم ينل منا الرضا حر وما ... رام منا سيد هذا المرام
أنت عبد والهوى أخبرنى ... أن وصل العبد فى الحب حرام
قلت ياهذى أنا عبد الهوى ... والهوى يحكم ما بين الأنام
وإذا ما كنت عبدا أسودا ... فاعلمى أنى فتى حر الكلام

وهو تارة يعلن أن لونه لم يكن مسودا قبل غرامه ، ولكن لهيب الشوق أحرقه فى قسوة فأحاله من البياض إلى السواد ، ولك أن تتصور الجسم الأبيض وقد اشتعلت فيه النار حتى تركته فحمة سوداء !! وهو تعليل طريف مستملح ، ولكنه ادعاء باطل تضحك من الشاعر إذ يصيح به فيقول :

كتمت فأقصانى وبحت فلامنى ... فهاج فراقى بين سرى وإعلانى
وما كان لونى قبل حبك أسودا ... ولكن لهيب الشوق أحرق جثمانى

وكأن الشعر لم يتسع ببحوره الضافية لعواطفه « السوداء » فنظم كثيرا من الأزجال المرحة تحوم فى مجموعها حول سواده ودمامته ، وعشاق الزجل يعجبون ببراعته وإبداعه ، ويشيدون بقصيدة « الزنجية الحسناء » وفيها يقول :

الناس لها مذهب فى البيض ... ومذهبى حب السودان
مرجان متيم ببخيته ... وبخيته مجنونه بمرجان
مين اللى قال الحب عذاب ... يا ناس وحق الله افتونى
الليـــل ومحبوبتى أصحاب ... إزاى عواذلى يشوفونى

ونلاحظ ونحن نطالع غزله المرح ، أنه كان مشبوب العاطفة، صادق الصبوة ، فهو يغمرك بفيض من الإحساس الصادق ، ونحن لا ننتظر من شاعر مثله أن يثب مع الخيال إلى أجواء عالية، فقد كان فى عهد يقتصر فيه الشعراء على التعبير الفطرى ، والإحساس الأولى ؛ دون جنوح إلى التأمل والاستغراق ، بل إن إماماً قد سلم مما ارتطم فيه معاصروه من الجناس المستكره ، والطباق الثقيل ، واندفع إلى التعبير عن خواطره فى سلاسة ونصوع ، وحسبك منه أن يسكر لسانك بحلاوة اللفظ ، ويطرب سمعك بعذوبة النغم ، إذ يقول

أرى لوعة بين الجوانح لا تهدا ... أهذا الذى سماه أهل الهوى وجدا
وما ذلك الواهى الخفوق بجانبى ... أهذا هو القلب الذى يحفظ العهدا

أو يقول :

كان هذا الغرام يجرى ورائى ... فى شبابى فصار يجرى أمامى
إنما الحب كهرباء عيون ... لعيون تسرى إلى الأجسام
ما خضعنا لدهرنا وهو ليث ... وخضعنا لنظـــرة الآرام

أو يقول :

أقام الهوى عشرين حولا بمهجتى ... وسار ، فمن أوحى له برجوع
كأن الهوى ما أكرمته ربوعها ... وصـــادف إكراما له بربوعى

ورغم هذه المقطوعات الجياشة بالحنين إلى المرأة ، التشوفة إلى ظلالها الوارفة ، وروضها البهيج ، قد قضى الشاعر حياته عزبا لم يتزوج ، ولسنا نحار فى تعليل ذلك ؛ فتكاليف الزواج مرهقة لا يحتملها شاعر معدم ، تتلوى أمعاؤه فى أكثر أوقاته جوعا وسغبا ، ويتحرق إلى مسكن ضئيل يقيه برد الشتاء وحر الهجير ، وقد كان الأدب على عهده لا يغنى من جوع ، أو يدفع من فاقة ، بل يظل الأديب مترددا على الأندية والمقاهى دون أن يجد من يدفع به إلى باب يرتزق منه ، وكانت الصحف السياسية والأدبية من القلة بمنزلة لا تهيئ لها النهوض بحملة الأقلام ، وبخاصة إذا كانوا من طراز إمام ممن يتهالكون على الشراب تهالكا يستنفد جميع ما لديهم من المال ! وتلك حالة جديرة بالرثاء والإشفاق !! وقد نظر إمام إلى الزواج ككارثة مروعة تؤجج اللوعة والحيرة ، وصور للقراء ما يعقبه من تبعات ومصاعب ، ونحن لا نؤيده فى دعواه ، ولكننا نعرض جانبا من أبياته ، ليضئ ما يغشاه من اضطراب وقلق ، وإن كنا نرجع باللائمة إلى سلوكه المضطرب ، وتربيته الموجاء ، وزمنه الجحود ، اسمعه يقول :

أيها العاقل المهذب مهلا ... هل رأيت الزواج فى الدهر سهلا
كل عام يزاحم الطفل طفل ... ليتنى عشت طول عمرى طفلا
ذاك يحبو ، وذاك يمشى ، وهذى
فوق صدر ، وتلك تنشد بعلا
ضاق صدرى من الزواج فمن لى ... بحياة الخصى قولا وفعلا
كان هذا الشقى جسما فلما ... أنهكته الهموم أصبح ظلا

وهكذا يئس الشاعر من الزواج فلم يطرق بابه ، وقد ادعى فى مقطوعة أخرى أن لديه مانعا يحول دون زفافه ، فهو كالليل الحالك ، وكل حسناء شمس منيرة ، واجتماع الليل والشمس من ضروب المحال (١) ، وهذا ادعاء خطابى ، فلكل ساقطة لاقطة كما يقولون

وتسألنى عما نظمه إمام البؤساء مصورا فاقته وعدمه ؟ والحق أنه أسهب فى تبرمه وتوجعه لحالته ، وكان يحزق كبده أن يجوع وتأكل الماشية ، ويعرى وتكتسى الأضرحة ، ولولا أنه كان يسرى من نفسه بمجالس السمر ومطارح الفكاهة ، لاحترق بما يشتمل فى صدره من جحيم ، وقد كان ككل أديب بائس — يظن لديه من الحصافة والمرونة ما يؤهل له العيش الرغد ، والنعيم المهنأ فإذا صدمه الواقع المرير بالبؤس والتربة ثار على الوضع الجائر ، وندب الحظ العاثر ، وتطلب المكانة التى يصورها له خياله ، وإنها لبعيدة عنه أشد ابتعاد !! وقد كان من القسوة الغليظة أن يلقبه الناس بالعبد وهو الأديب الحر العيوف ، وماذا يصنع فى لقب ورثه عن أبيه ، ولازمه كالظل فما ينفك عنه أبد الحياة ، إنه ليقابله بالعتب المرير ، ويصيح كالساخر العابث :

نسبونى إلى العبيد مجازا ... بعد فضلى واستشهدوا بسوادى
ضاع قدرى فقمت أندب حظى ... فسوادى على ثوب حداد

وإذا كان السواد ثوب حداد على حظه الضائع ؛ فإنه فى موضع آخر حداد على قلمه الكاسد !! هذا الذى لا يجر نفعا لصاحبه ، وهو أحرى أن يملأ يديه بالذهب النضار ، لو عاش بين قوم يقدرون فضله ، ويحترمون مواهبه ، وقد عنى الشاعر أن يكون قلمه سهما مسددا إلى فؤاده ، فيريحه مما يكابد من عناء !! وتلك أمنية ترمض الجوانح ، وتدمى الجفون ، ولكنها فى رأيه سبيل الخلاص ، ومرفأ النجاة ، ها هو ذا يقول :

لبست لأجله ثوب الحداد ... ودرت مع الزمان بغير زاد
أمد يدى إلى قلمى افتقارا ... فيدفعنى إلى تلك الأيادى
فياليت اليراع يصير سهما ... كما أبغى ويكتب فى فؤادى
سئمت من الحياة بلا حياة ... وضقت من الرشاد بلا رشاد
وكيف يهيم بالدنيا أديب ... تربل بالسواد على السواد
إذا أكل الطعام فمن تراب ... وإن شرب المياه فمن مداد
كأن الدهر يغضبه صلاحى ... فأفقرنى ليرضيه فسادى

وأوجع من هذا أن يقول شاكيا فاقته ناديا مجتمعه الجائر

خلقت بين أناس لا خلاق لهم ... فباعدى الفضل فى الدنيا بلا ثمن
لولا بقية دين أمسكت رمقى ... لقلت إن إله العرش لم يرنى

---

(١) يقول إمام :

يا خليلى وأنت خير خليل ... لا تلم راعياً بغير دليل
أنا ليل وكل حسناء شمس ... فاجتماعى بها من المستحيل

رسالة المربى

أهمية العلوم — المدرسة والمجتمع — المجتمع العالمى ورسالة المربى

الأستاذ كمال السيد درويش

يحتاج التوافق الاجتماعى إلى جانب الإعداد التربوى ـ الخلقى والبدنى ـ إلى الإعداد العقلى أيضا وذلك عن طريق العلوم فقد كانت ولا تزال من أهم الوسائل التى يستعين بها الإنسان على إشباع حاجته إلى المعرفة وتوفير حاجته إلى الأمن . والعلوم من أهم وسائل الإنسان فى تذليل ما يصادفه من عقبات وبها يستطيع الحياة فى جو مطمئن يساعده على الابتكار والتجديد والتقدم . ولسنا الآن بسبيل سرد تلك العلوم ولا بسبيل الإشارة إلى أهمية كل منها على انفراد أو الحاجة الإنسانية إليها فذلك كله من الأمور البديهية ، وما على الإنسان إلا أن يفكر قليلا ليدرك مدى الخدمات التى تؤديها مختلف العلوم والتى لولاها لما تقدمت الإنسانية فى طريقها ولما خطت خطواتها السريعة فى سبيل التقدم . وإنما الذى يهمنا الإشارة إليه هو كيفية تدريس هذه العلوم المختلفة بحيث تصبح فعلا مفيدة للانسان ، أى بحيث يستطيع استغلالها واستخدامها كوسائل فعالة ، حية ، نامية ، لا أن تصبح مجرد أدوات لا قيمة لها أو كجثث محنطة لا نفع فيها ولا حياة . وهنا نستطيع أن نتبين أهمية رسالة المربى . إنها تظهرنا على الموقف الذى يجب أن نقفه كربين من تدريس العلوم على اختلافها ؛ من كيفية تعلمها وكيفية تعليمها أيضا . يجب أن يشعر المتعلم بفائدة العلوم التى يتعلمها ؛ يجب أن يشعر أن العلوم وإن كانت قيودا تزيد فى ثروته العلمية وتعاونه على التآلف مع بيئته وتزيد فى قدرته على التعامل معها . وما لم يحدث ذلك فعلا كان المتعلم قد خسر كل شئ ولم يستفد سوى حشو ذهنه بالمعلومات الميتة فلا هو سينتفع من معرفتها ولا سيضره جهله بها، بل سينفعه تركها والتخلص منها

إن للعلوم جميعها أهمية كبرى فى تحقيق رسالة المربى ، ولعلم النفس من بينها أهمية خاصة لم نشعر بها بعد، لذلك يجب الإشارة إلى الأهمية الكبرى التى اكتسبها . لقد أصبح علم النفس ضرورة من ضرورات المجتمع الحديث ، فبه يمكن حل الكثير من المشاكل الاجتماعية وعلى ضوئه يمكن تفسير السلوك الإنسانى المعقد، وبدون ذلك لا يتيسر للانسان الحياة فى وئام . علم النفس الآن هو طبيب، الإنسانية بل خادمها الأول .. وهو ينفع المعلم كما ينفع الطبيب وينفع صاحب المصنع كما ينفع العامل . هو علم الإنسان . بل علم النفس الإنسانية ، ولذلك يجب علينا معشر الشرقيين أن نحله مكانه الممتاز بين سائر العلوم

أو يقول :

وما قتلتنى الحادثات وإنما ... حياة الفتى فى غير موطنه قتل
وما أبقت الدنيا لنا من جسومنا ... على بأسنا ما يستقيم به الظل

وكأن الحظ قد سد أذنيه عن قلم إمام فلم يصغ لحظة واحدة ، إلى صرخاته الفاجعة ، وما زال يتقلب على أشواك الحرمان حتى دهمته العلة بعد خمسين عاما من عمره الجديب ، وأحس أنه قريب من الموت فلم يأسف من الحياة على شئ غير يراعه العجيب ، فطالما نفث بعداده السحر ، وشنف بصريره الأسماع ، فطفق يودعه فى حرقة وتلهف ، وينشده الرثاء الباكى الذى ناح به على نفسه ، وهو يكابد العلة القاتلة ، ويصاول الداء الفتاك، ثم سبحت روحه إلى آفاقها الرحيبة ، بعد أن ردد هذه الزفرات الأخيرة

يراعى ، لقد حان الفراق وربما ... أراك على العهد القديم باقيا
لبست عليك الليل حزنا وليتنى ... لبست على نفسى الدجنة ثانيا
مضت بيمينى الحادثات جهالة ... فلما رأت صبرى مضت بشمالها
وكيف يطيب العيش والدهر مدبر
وفى القلب ما يفرى الحسام اليمانيا

رمل الاسكندرية — محمد رجب البيومى

٣٧٠٤٠